

ولقيتها أختي بوجوم غريب، رفعت عينيها إلى السماء، ثم مضت فيما كانت فيه من صمت وحزن وإعراض.

قالت أمتنا: إذا كان الغد فسنرتحل عن المدينة المشؤومة!

لقد هممت حين سمعت هذه الجملة أن أنكر، وأن أمتنع، وأن أناقش وأجادل، ولكن أمتنا قالت هذه الجملة بصوت حزين بعيد محطم، فلم أستطع أن أقول شيئاً ولا أن أظهر شيئاً إلا الطاعة والإذعان.

ذكرت ما أَلَمَّ بها من البؤس طول حياتها مع ذلك الزوج الماجن الفاجر، ذكرت ما حَرَّقَ فؤادها من الغيرة، وما آذى نفسها من الذل، وما رَوَّع قلبها من الخوف. ثم ذكرت ذلك الخطب الذي أَلَمَّ بها فهَدَّها هَدًّا حين جاءها النبأ بأن زوجها قد صُرع، وبأنه قد صرع فيما لا يشرف به صريع.

ثم ذكرت هذه الآلام التي لا حد لها، والتي غمرتها كما يغمر الماء الغريق، حين أنكرتها الأسرة إنكاراً، وحين أخرجتها من القرية، ثم نفثها مع ابنتيها من الأرض. ذكرت هذا فلم أستطع أن أنكر ولا أن أجادل، ولم أزد على أن أظهرت الطاعة والإذعان، والله يعلم أي ليلة قضيت ساهرة حائرة ثائرة، لا أطمئن إلى شيء ولا أسكن إلى رأي، حتى إذا كان الصباح نهضت أمتنا فأمرت أن نستعد للرحيل، قلت: أفلا نؤذن سادتنا بهذا الرحيل؟ قالت في صوت هادئ حزين: إن كان يؤذيك فراقهم فأقيمي فسنرحل نحن، قلت باكية: إن فراقهم ليؤذيني لكني لن أستطيع أن أقيم، وإنما هبطت معكما هذه الأرض، وقد كنت أحب أن أرى خديجة قبل الرحيل.

قالت: فإنك إن رأيته لم تعودى إلينا، أليس أبوها مأمور المركز؟ أفئنُ تعلقت بك وكرهت فراقك يُخلُّ بينك وبين الرحيل؟ قلت: إذن فلنرحل.

وما هي إلا ساعات حتى كانت أقدامنا قد تجاوزت بنا المدينة، وانتقلت بنا من قرية إلى قرية نحو الغرب، حتى إذا بلغ منا الإعياء أقمنا حيث كنا نستريح وننتظر الصباح.